

المجتمع الإسلامي من خلال مقامات ابن الجوزي

د . باسم ناظم سليمان

قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ جامعة كركوك

المستخلص

تُعد مقامات ابن الجوزي أنموذجاً للأدب الملتمزم الذي صور الإسلام وواقع المسلمين ناقداً وموجهاً وناصحاً فهي نوع من الأدب التعليمي الهادف شكلاً ومضموناً جسدها على لسان أبي التقويم بطل مقاماته الخمسين التي ارتكزت على جوانب خلقية وعملية واعتقادية (إن المقامات لوحة فنية متباينة تتحدث عن عصور اجتماعية شتى. صور حياة استمرت وصور بالية أو مريضة ماتت وقبرت في عصرها)^(١).

المقدمة:

أنشأ ابن الجوزي مقاماته الوعظية خدمة للمجتمع الإسلامي هادفاً إلى تقويم النفوس الضالة والقلوب المريضة واصفاً الدواء الشافي الذي يتجلى في الدين الإسلامي، إذ عاصر ظروفًا اجتماعية واقتصادية وسياسية مريرة فمن الظروف الاجتماعية بروز طبقتين هما الطبقة الخاصة كالخلفاء والأمراء والطبقة العامة كالصناع والكسبة والتجار والحرفيين وكانت الطبقة العامة تعاني من أوضاعها، ومن الظروف الاقتصادية التفاوت الاقتصادي وفرض الضرائب وارتكاز الثروات في يد فئة قليلة من الناس ومن الظروف السياسية سقوط الدولة الفاطمية في مصر وأطماع الصليبيين في بلاد الشام^(٢). فانعكست تلك الظروف في مقاماته وكانت مرآة لواقع الأمة الإسلامية في القرن السادس الهجري إذ حاول إصلاح المجتمع من خلال الوعظ والإرشاد ولا سيما في الجوانب الخلقية.

نصح أبو التقويم أحد السلاطين اللاهين المتكبرين قائلاً: (الخلافة نيابة عن الله عز وجل في عباده وقيام بأمره في جميع بلاده. وقد وقع إلى النائب فيما يصنع في كل نائب فالخيانة في ذلك اعظم جناية. إن الله عز وجل لم يجعل أحداً فوقك فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أطوع له منك فالنظر النظر في خلقه والجد الجد في القيام بحقه والتلمح للنواب في الشرق والغرب (...)) وأحوج الناس إلى التنكير السلطان لأن المملكة توجب القدرة والبطر والطغيان فتتجدد من ذلك حالة

(١) المقامات أصالة وفنا وتراثنا: عبد الأمير مهدي الطائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠١م،

(٢) ابن الجوزي: د. حسن عيسى علي الحكيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٨، ٦ وما بعدها.

شبيهة بحالة السكران ويتفق بعدُ المذكّرين وُقربُ الغافلين فلا يكلم الا بما يهواه ولا يتجاسر فصيح أن يلقاه (...). من عِلْمِ ضرر الهوى وجب عليه جهاده ومن تفكر في قصر العمر لزمه بداره والأيام ثلاثة: يوم قد انقضت لذاته وبقيت تبعاته وحسابه ويوم منتظر ليس منه الا الأمل وانما يومك الذي أنت فيه فلا ينبغي أن يصعب عليك في هذا اليوم القصير ترك شهوة توجب طول ندم فان الدنيا بالاضافة إلى الأخرى أقل من لمحة وتهين هذه الحالة بمثال لو قدرنا ان السموات والأرض ملتنا بالذر ثم صورنا طائراً يتناول في كل الف سنة ذرة لفني ذلك ومدة الآخرة لا تقنى أفلا سشتريها المتيقظ بصبر ساعة عن منهى الهوى (...). أين من حصن الحصون واحترس وعمر الحداثق وعرس ونصب سرير الكبر وجلس وظن بفناء النفس خاب الظن في نفس^(١).

يتجلى في النص تحذير ابن الجوزي للسلطان فهو خليفة الله في الأرض ومن واجبه متابعة ولاته ونوابه في كل نواحي البلاد، والمُلك سبب البطر والطغيان. ان أخطر داء ابتليت به الأمم - حتى يومنا هذا- مدح السلاطين وذكر ما يرغبون سماعه من مدح وتفخيم. والمجتمع كله بحاجة للنصح والموعظة والتذكير ولا سيما ولاية الأمور كالملوك والأمراء والوزراء؛ لأنهم اعتادوا على سماع ما يرضيهم من مدح وتمجيد وتعظيم فضلاً عن ذلك هم (أكثر الناس أشغالاً وأعظمهم أثقالاً وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم ومشاهدة أفاصي أعمالهم بأعينهم وليس كل مستعان به يُعين)^(٢). لقد كانت تجارب ابن الجوزي مريرة مع الحكام في الواقع؛ لصراحتة وجهه بالحق اذ (كان بعيداً عن الرغبة في الحكام والتقرب منهم على غير عادة الأدباء في ذلك الزمان)^(٣). ومن الجدير بالذكر ان مجالس وعظ ابن الجوزي لم تكن خاصة بالعامّة من الناس بل حضرها الخلفاء، ومن الحوادث التاريخية التي ذكرها (فتكلمتُ بكرة الخميس ثالث محرم والخليفة حاضر وكان يوماً مشهوداً ثم تقدم اليّ في الجلوس هنالك يوم عاشوراء فأقبل الناس إلى المجلس من نصف الليل وكان الزحام شديداً زائداً على الحد ووقف من الناس على الطرقات ما لا يحصى وحضر أمير المؤمنين وفقه الله)^(٤). لقد أدرك ابن الجوزي أهمية السلطان العادل وتأثيره في تقدم المجتمع حيناً يشعر بمعاناة الفقراء

(١) مقامات ابن الجوزي: تحقيق د. محمد نغش، دار فوزي للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠م، ٢٦٨-٢٧٢.

(٢) نصيحة الملوك: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦م، ٥٢.

(٣) سلوة الأحران بما روي عن ذوي العرفان، ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق سهير محمد المختار، أمانة محمد نصير، الاسكندرية، ١٩٧١م، ١٢.

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق فرييس كرنكوي، مطبعة الجامعة العثمانية، حيدر آباد، ١٣٥٩هـ، ٢٥٦/١.

ويوفر لهم سبل الراحة إذ (يجب على الخليفة نشر دعوة الإسلام وإقامة ميزان العدل وحماية الدين من الاعتداء والبدع والمشاورة في كل ما ليس فيه نص)^(١).

وقد أثرت العيوب الخلقية للمجتمع الإسلامي في نفس أبي التقويم فأصابه مرض شديد حزناً وألماً على الواقع المتخلف الذي يعيشه المسلمون (فإذا سكان معظم الأقطار كفار وإذا الإسلام كبيت في الفقار فنظرتُ في مساحته فإذا سكان ساحته على أقبح سيرة (...)) منهم متكلم يقول: القرآن مخلوق ومنهم جاهل بالفتوى وبابه مطروق ومنهم من لا يراعي الحدود ولا يبالي بالفسوق ومنهم مذكّر يزيّن باطله بالراووق جمهور كلامه في العاشق والمعشوق ومنهم متزهّد يبيع زهده بسعر السوق (...)) والحكام في أحكام وفي دين الشهود خروق والأمرء في صبوح من المعاصي وغبوق والأغنياء اصدقاء البخل أعداء الحقوق (...)) ويؤخرون الصلاة ويقولون المكسب يعوق فإن صلوا ووافقوا سابقوا حركات البروق (...)) الفقير يتقلقل جوعاً والمال في الصندوق والربا فاش حتى في الخبر الموثوق (...)) والنساء تخن الأزواج فكل ما في الدار مسروق لا يعرفن قبله في الغروب ولا في الشروق يتبرجن إذا خرجن فكم أزعجن بأمر يشوق (...)) وربما ألحقن حملاً بمن ليس منه العلق فإن مات ميتٌ فالثوب مخزق والجيب مفتوق وهنّ لاطمات كاشفات في الثغور والشعور والسوق من علمهنّ المحفوظ عنهنّ والمنطوق لا تكسر وسط الرغيف والديك معتوق ولا تكنس بالليل الا ورأس المسفرة محروق وكلما طلبت عاملاً بالشرعية طلبت بيض الأنوق فهذا سبب مرضي إذ ليس الطريق بمطروق)^(٢).

شخص أبو التقويم سلبيات المجتمع التي أثرت في نفسه ومنها تدهور أوضاع المسلمين فسكانه كفار وعلماءه جهلاء منشغلون بالقضايا الخلافية غير المجدية والساسة منشغلون بالمعاصي والشهوات والأغنياء منشغلون بالتكسب والتجارة ولا يُخرجون زكاة أموالهم بينما يعاني الفقراء من الجوع والحرمان ومن الظواهر السلبية والعيوب التي شخصها أبو التقويم طباع النساء السيئة كالتزيّن لغير الأزواج ولطم الخدود وتمزيق الثياب كما تشيع بينهنّ الخرافات والأوهام.

كما شخص أبو التقويم أمراض المجتمع الإسلامي المنبعثة من الحكام والأغنياء والعلماء والنساء فقد عانى من هذه الأوضاع في حياته الواقعية (فقد عاش في القرن السادس ورأى شيوع

(١) روح الدين الاسلامي: عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت، ٣١٥.

(٢) مقامات ابن الجوزي، ٤٠٢-٤٠٣.

الراووق: إناء يروّق فيه الشراب. الغرنوق: طائر مائي اسود والمراد حقير. المسفرة: المكنتة وهي اشارة الى خرافات. الأنوق: طائر أصلع الرأس يسكن في القمم العالية من الجبال يصعب الوصول الى بيضه.

الترف ونفسي الأدواء والبعد عن النهج المستقيم وكانت الشهوات والأهواء مرضاً فاشياً لفراغ النفوس من الأهداف وإخلاؤها إلى الراحة والنعيم فقام يحذر ويصيح ويذود الرعاة عن الحمى ويحاول ان يُبرئ من الضلال والهوى وأن يحفظ على قومه نضارة الإيمان واستقامة السلوك^(١).

كذلك أبدع أبو التقويم في تعزية الميت بأسلوب مقنع إذ قال وهو يعزي أبا حزيناً يائساً ويوصيه بالصبر بعد موت ابنه (الشجاعة صبر ساعة ثم أشار إلى صاحب المصيبة وقال اسمعها عجيبة فانها تسلية للمصابين وموعظة للمؤمنين (...)) إذا قيس الجزع بالصبر فالصبر أولى غير أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى واتعظ بما قال المولى للأخرة خير لك من الأولى (...)) الجزع لا يرد الغائب ولكن يُسر الشامت ثم إنه زيادة في العذاب لأنه مصاب يُضاف إلى مُصاب (...)) وهل يرجو الذي يطول عمره إلا أن يختل أمره (...)) في المصائب نعم وإنما تخفى على النعم توقظ الغافل للعبر وتنبه الراحل بمن غير وتحصل الثواب لمن صبر (...)) فقال له صاحب المصيبة: لقد نفعني بما أسمعني ولقد كنت في حضيض الجزع فرفعتني فزدني من فصيح لفظك لأشتمل بصبح وعظك فقال: اعلم أن الهبات زاهبات والليالي متاهيات ناهيات أين الذين كانت الألسن تُهذي بهم لتهديبهم فأصبحت فلك الاختبار تجري بهم لتجريبهم لما أقامهم منادي الرحيل لتُغري بهم لتغريبهم فباتوا في القبور وحدانا لا أنيس لغريبهم. اين أهل الوداد الصافي في التصافي؟ أين الفصيح أنشأ في القول الشافي؟ اين قصورهم التي تضمنها مديح الشعراء؟ صار ذكر القوى في القوافي لقد نادى الموت أهل الغوالي والقصور العوالي (...)) فقال المصاب: سليتني أجزل الله جزاك فقال: زاد الله في صبرك وأحسن عزاك^(٢).

لقد أحسن أبو التقويم آداب التعزية كالتوصية بالصبر، والتفكر بالموت والاستعداد للأخرة لتسلية الوالد الذي فقد ولده فالجزع لا يثمر بل يسر الشامت ويزيد العذاب (إن التعزية هي التصبر وذكر ما يسلي صاحب الميت ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهي مستحبة فانها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (...)) واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده وتكره بعد ثلاثة أيام لأن التعزية لتسكين قلب المصاب والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن^(٣).

(١) ذم الهوى: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٦٢م، ١٨.

(٢) مقامات ابن الجوزي، ٢٤٦-٢٤٩. القوى: الهلاك.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد الابشيبي (ت ٨٥٠هـ)، دار الفكر للطباعة

والنشر، بيروت، ١٩٥٩م، ٢/٢٨٤.

ان مدّ يد العون لذوي المصاب أمر أقرّه الشرع لاشعارهم بالأمان والقوة والمودة وتصبيرهم (ودعامة الصبر تتناول الصبر على الجوع والصبر على الايذاء والصبر على المكاره والصبر على المصائب)^(١).

وأوصى أبو التقويم صبييا عاقا أن يبّرّ أباه ويحسن اليه قال الصبي: (ما صنعتُ أنني عقتُ والدي فلما أفقتُ وضعتُ له خدي وبدي فأبى إلا أن يقتلني بالهجر ولا يدي فقال الشيخ: أقسمُ على أبيه ان كان حضر أن يبيحه من العفو ما كان حضر فقام الأب فقال: ربيته حتى تمّ ونما وعلمته الكلام فما فرغ حتى فغر بثمتي فما وبئس ما يفعل بي من بي سما فقال المذكر أقلّ عثرته هذه النوبة فإن الندم توبة)^(٢).

لقد أبنتلي ابن الجوزي بمثل هذا الصبي العاق في زمن المحنة فإذاقه المرار إذ كان مشاكساً لقد (كان له من الاولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز وهو أكبرهم مات شابا في حياة والده في سنة أربع وخمسين ثم أبو القاسم علي وقد كان عاقا لوالده إلبا عليه في زمن المحنة وغيرها وقد تسلط على كتبه في غيبته بواسطة فباعها بأبخس الثمن ثم محي الدين يوسف وكان أنجب أولاده وأصغرهم ولد سنة ثمانين ووعظ بعد أبيه واشتغل وحرر وأتقن وساد أقرانه ثم باشر حسبة بغداد ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد)^(٣).

وشخص أبو التقويم علاج العشق وكيفية التخلص منه بعد أن سأله الراوي: (فقلتُ يا سيدي قد عرفتُ ان العشق قلقٌ وانزعاج ولكن أنا محتاج إلى ذكر العلاج فقال أول ما يزيل حمية حمى العشق سكن حمى الحمية فمتى نظرت نظرة ذي علق فاقطع بالغض تلك العلق (...)) ثم ركب للبقية الأخلاط ادوية منها الحذر من عقوبة الانبساط ومنها السفر والنكاح على رأي بقراط وأبلغ من هذا التفكير في عيوب المحبوب وانه أنذل من أن تبدل في مثله القلوب ما هو إلا جسدٌ مبني من صلصال إن قلت له صلّ صال (...)) ثم أين الأنفة من الذل والحبّ على الحقيقة كالغُل)^(٤).

حدّر أبو التقويم من ضرر النظرة وما تجنيه على الناظر من مرارة وندم، وحزن قال أحدهم: (العشق خفي أن يُرى وجلي أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته اورى وإن تركته توارى وقيل اول العشق النظر واول الحريق الشرر)^(٥) فعلاج العشق وتجنبه يكون بغض البصر،

(١) تربية النفوس في الاسلام: د. محمد محمد خليفة، مجلة الوعي الاسلامي، الكويت، العدد ٨٩، ١٩٧٢م، ٨١.

(٢) مقامات ابن الجوزي ١٣٧-١٣٨.

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير، مكتبة المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٧م، ٣٠/١٣.

(٤) مقامات ابن الجوزي ٢٩٠.

(٥) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الابشيهي ١٥٩/٢.

والسفر، والزواج والتفكر بعيوب المعشوق (واعلم ان العين تتوب عن الرسل ويدرك بها المراد والحواس الأربع ابواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس والعين أبلغها وأوضحها دلالة وأوعاها عملاً وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة)^(١).

ووصف أبو التقويم علاجاً آخر للعشق قائلاً: (من اشتغل بفهم القرآن المرئى لم يصبه سهم الشعر المرئى ويحك إن النظرة كحبة غُرست فمتى لم تُسَقَّ يبست فاحذروا إعادة النظر وازجروا القلوب من قبيح الفكر)^(٢) إن العشق يجعل الفرد أسيراً ضعيفاً لذلك حذر حكيم قائلاً: (كل أسير يفتك إلا أسير النساء فإنه غير مفكوك وكل مالك يملك إلا مالك النساء فإنه مملوك)^(٣).

ويحذر أبو التقويم من البخل ويحث على إطعام سائل جائع إذ أن (البخل بالطعام من اخلاق الطعام وان العقلاء واسوا بقدر طاقتهم ولم يتناسوا قرب فافتهم هذا لأن عادات السادات سادات العادات وشيم الأحرار أحرار الشيم فقام رجلٌ فحثاله من الحثالة فقال الشيخ: لو كنتم بالخلف تُصدّقون ما كانت بالخلف تصدّقون ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ سورة البقرة / الآية ٢٦٧)^(٤) وهو ينصح باكرام الضيف واطعام الجائع فهما من سمات المؤمن الذي يجب ان يتحلى بالكرم وحسن الخلق وقد قيل: (البخيل ابدأ ذليل وقال بعضهم: شر أخلاق الرجال البخل والجبن وهما من أخلاق النساء وقال ابن المعتز بشرّ مال البخيل بحادث أو وارث)^(٥).

لقد مرت ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة في الفترة التي عاشها الكاتب ابن الجوزي إذ (كان التردّي الاقتصادي في مجتمع القرن السادس للهجرة ارهاصاً بكارثة تاريخية أعقبت حالة التخلخل الاجتماعي فكان الغزو بعد ذلك نحرًا لتاريخ الأمة وكأي مجتمع طبقي نتحسب طبقيته على السلوك الاجتماعي عامة)^(٦). ان الوعي الاقتصادي والاحساس بمعاناة الفقراء المحتاجين من ابرز

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف: ابن حزم الاندلسي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٥م، ٥٤.

(٢) مقامات ابن الجوزي ١٠٦.

(٣) الحب والجمال عند العرب: أحمد تيمور باشا، مطبعة عيسى البابي الحلبي واولاده، القاهرة، د.ط، ١٩٧١م، ١٤٠.

(٤) مقامات ابن الجوزي ١٧٦.

الخلف: المحال الذي ينافي المنطق والمعقول.

(٥) كتاب اليواقيت في بعض المواقيت في مدح الشيء وذمه: أبو منصور عبد الملك محمد الثعالبي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م، ٢٣١.

(٦) صورة المجتمع في شعر القرن السادس للهجرة: سعاد جاسم الصميدعي، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٣م، ٣٥٠.

عوامل تقدم المجتمعات (والرفاه الاقتصادي إن لم يرافقه وعي اجتماعي وقيم روحية وثقافية مناسبة كان وبالأول وليس رفاها)^(١).

ويبين أبو النقوم فضل العالم ومكانته في المجتمع قائلاً: (العالم شمسٌ تضيء في جميع العالم وإنما بيد العابد قبس. العلماء ورثة الأنبياء (...). العلماء هم الأصل في إقامة المعالم ومدادهم يرجح على دم الشهداء لأن اراقته تلميز نُطق العالم. العالم حي بعد الموت تنطقُ تصانيفه بأفصح صوت فتصانيفه اولاده المخلصون دون اولاده. مياه المعاني مخزونة في صدر العالم (...). أما علمت أن الجهل خندق يحول بين الطالب والمطلوب (...). العالم إذا زلّ تلافى والعابدُ الجاهلُ إذا زلق تلف ثم إن نفع العلم يُتعدى فكم قد كفّ كفّ من يتعدى)^(٢).

فالعلماء ورثة الأنبياء ودلّ على ذلك علماء الحديث والقرآن والتفسير كالامام مسلم والبخاري وابي حنيفة والشافعي وغيرهم حيث فصلوا علوم الشريعة فكانوا هداةً للبشرية ومؤلفاتهم خالدة بعد موتهم يقتبس منها المسلمون حتى يومنا هذا ولا سبيل لنقدم الأمة سوى العلم وقد اوصى حكيم ولده قائلاً: (يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فإن الناس طائفتان خاصة وعامة فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال)^(٣) وأكد البخلي - وهو من علماء المسلمين - فضل المعلم والعالم بقوله: (ليس يستغني أحدٌ عن التعلم والتعليم لأن الحاجة يُضطر اليها في جميع الديانات والآداب والصناعات والمذاهب والمكاسب فما يستغني كاتبٌ ولا حاسبٌ ولا صانعٌ ولا بائعٌ عن أن يتعلم صناعة ممن هو أعلم منه ويعلمه من هو أجهل منه وقوام الخلق بالتعلم والتعليم فالمعلم أفضل منه المتعلم لأن صفة المعلم دالة على التمام والإفادة والمتعلم صفة دالة على النقصان والاستفادة)^(٤).

إن فضل العلماء لا يعرفه سوى العلماء أنفسهم وذوي العقول أما الجاهل فلا يدرك مكانتهم ودورهم في تقدم المجتمعات ورفيها وما تأخرت مجتمعاتنا إلا لأننا جهلنا مكانتهم فلم نوقرهم ولم نرعاهم قال ابن المعتز: (العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً وهذا صحيح ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصرفوا الزاهدين وانصرفوا عنه وعنهم انصرفوا

(١) الأديب والالتزام: محمود الجومرد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٠م، ٥٥.

(٢) مقامات ابن الجوزي ٢٢١.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف: الأبيشي ٤٥/٢.

(٤) تحسين القبيح وتقبيح الحسن: أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) تحقيق شاکر العاشور، مؤسسة المطبوعات

العربية، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ٣١.

المعاندين لأن من جهل شيئاً عاداه^(١). وقد كرس ابن الجوزي وقته للعلم والتأليف والقراءة غير منصرف إلى اللهو والعبث (إن توفير الظروف الملائمة للتعلم قد حبّب إلى نفسه العلم والشغف الشديد بأماكن التعلم والتعلق بالكتب وجعل ذلك غاية تتضاءل دون غايات النفس المتشبهة بالأعراض الزائلة من مال وجاه وولد (...)) عرف ابن الجوزي قيمة الوقت فانصرف عن اللهو والعبث وكان كل وقته مستثمراً في تعلم الجديد والاستزادة من المعلومات حتى أصبحت له في كل علم مشاركة^(٢).

وتضمّنت مقامات ابن الجوزي الجوانب العلمية في الإسلام فقد فسّر أبو التقيوم حكمة الصوم ومغزاه عندما سأله الراوي (ما الحكمة في تشريع الصوم والله غني من تجويع القوم؟ فقال: أذاق الغني في هذا الشهر ما يذوقه الفقير طول الدهر ليحنته بمساواته على مساواته وكذلك أمر بالتعزّي عند الاحرام ليذكر عرى الفقراء الكرام (...)) ليس الصوم صوم جماعة الطّعام عن الجماع والطعام إنما الصوم صوم الجوارح عن الآثام وكف الكف عن أخذ الحطام ومنع الأقدام عن قبيح الإقدام (...)) وهم يستوفون وقت الإفطار الحمل ويجعلون السحور علاوة فيقف جمل التعبد. المراد من التجويع خلوف الفم والذي عندهم جشاء التخم. يصبحون وبهم من الطعام بشم ومن الماء بعر. جاعوا بالنهار وما يفهمون كيف صاموا وشبعوا بالليل فناموا وما قاموا. قلت: لو كان الشبع قد منع ما كان السحور قد شرع فقال: كان السلف ربما تناولوا قوت الإفطار رغيفاً وتمرّة فيردفون بمثل ما حجّوا به عمرة^(٣).

إن من حكم فريضة الصوم إشعار الأغنياء المترفين بمرارة الجوع والعطش لعلمهم يتذكروا الفقراء المعدمين والصوم ليس امتناع عن الطعام والشراب والجماع فحسب كصوم عامة الناس بل هو صوم الحواس عن المحرمات والنواهي، وينتقد أبو التقيوم ما يفعله أغلب المسلمين في مجتمعنا وهو الإفراط في تناول الطعام والبذخ ولا سيما في السحور وفي ذلك ضرر كبير (لقد كان الغربيون - فيما مضى - ينكرون على الإسلام تشريعه للصوم ويظنون أنه اجاعة وتعذيب للمسلم ليس إلا - اليوم يأخذ أكثر العالم تقريبا مبدأ الصوم لاصلاح الذوق او الخلق او البنية (...)) ان الصوم مدرسة لتعلم الصبر وكل مسلم بل كل انسان بحاجة لأن يتعلم بهذه المدرسة. إن الصوم تطبيق عملي

(١) أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ) تحقيق مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٣، ١٩٥٥م، ٢٦.

(٢) ابن الجوزي ونظراته في التربية والتعليم: جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد العاشر، ١٩٧٩م، ٢٩٧.

(٣) مقامات ابن الجوزي: ٢٦٠-٢٦١.

لغرس الأمانة في النفوس حيث يجوع المسلم ويظمأ والطيبات من المآكل والمشارب أمام عينيه وفي تناول يديه ولا يردعه عن الأكل والشرب إلا خوف الله ومراقبته فهو تطبيق عملي على غرس الأمانة في النفوس^(١).

ان الإفراط في تناول الطعام دليل على الجهل والبطر وضعف الايمان فضلا عن الأضرار الصحية والنفسية التي تنعكس على صحة الفرد فتظهر في شكله وسلوكه (ويكره الإسلام كبر البطن والكرش لأنهما يمنعان المسلم من الجهاد والنشاط فهذا النوع من الناس الذي تقلّ حركته ونشاطه الجسمي يصاب بالكثير من أمراض التخمة والكلل. والجشاء أو التكرع ظاهرة مرضية وليست ظاهرة صحية كما يعتقد بعض الناس وسببه الرئيس (كذا) ارهاق المعدة بالطعام بحيث لا تستطيع ان تهضمه هضمًا جيدًا فيتخلف في المعدة ويحدث له تعفن وتخمر^(٢) ومن الجدير بالذكر ان سنة وفاة ابن الجوزي رحمه الله كانت سنة مجاعة وموت الكثيرين بسبب سوء توزيع الثروات وتفاوت الطبقات وعدم الاحساس بمعاونة الفقراء لقد (كان الجوع المفرط والموت بالديار المصرية وجرت أمور تتجاوز الوصف ودام ذلك إلى نصف العام الآتي فلو قال قائل مات ثلاثة ارباع اهل الاقليم لما أبعد وأكلت لحوم الأدميين)^(٣).

وأدى ابو التقيوم فريضة الحج وألقى خطبة موضحاً فيها معنى الحج بعد أن علا على نشز وقال: (أيها الناس أتدرون من تقصدون؟ وإلى من تعمدون؟ أتظنون أن الحج مفارقة الاوطان؟ وترك مفارقة النسوان؟ وجوب السباب على النجائب؟ وقطع المراحل على الرواحل؟ كلا والله بل خلوص النية للبرّ قبل البرية وإصلاح الطوية قبل امتطاء مطا المطية والترهب ليوم الميقات قبل التأهب في الميقات ونزع لباس الإلباس قبل خلع هذا اللباس وهجر التخليط والتفريط قبل ترك المخيط أفينفعُ الغُسل منعماً في الذنوب؟ او نزع المخيط من لم ينزع عن حوب او يدفع الدخول في الاحرام عنم يجول في الحرام او حلول وادي عرفة لمن جهل الحق وما عرفه او الرمي بالاحجار والجمرات من في قلبه نار الاصرار جمرات (...). أو التطوف حول البيت بقلب غافل ميّت أو السعي بين الصفا والمروة لمن ليس له صفا ولا مروة أو يرد حلق الرأس من يريد حلق الناس؟^(٤)

(١) نظرات في الصوم: منشورات جمعية رابطة علماء العراق فرع الموصل، مطابع الجمهور، الموصل، ١٩٧٤م، ١٣.

(٢) الاسلام ونظام التغذية: د. أحمد شوقي الفنجري، مجلة الوعي الاسلامي، الكويت، العدد ١٣١، ١٩٧٦م، ٦٢.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، المجلد الثاني، ٣٢٨/٤.

(٤) مقامات ابن الجوزي: ١٤٨-١٥٠.

المقارنة: المخالطة. السباب: جمع سببب المفازة. النجائب: جميع نجيب ويقال نجائب الابل أي خيارها.

إن الحج اخلاص النية لله وصفاء القلب وتجنب المحرمات والاستعداد لليوم الآخر وفي هذه المرحلة تكمن مشاق عديدة منها عناء السفر والبعد عن الأهل لقد (فرض الحج فكان آخر فروضه لأنه يجمع عملاً على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الأحوال ليكون استثناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة إلى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان في ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والأهل وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والمعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع أهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على ما أسلفوه)^(١).

وبيّن أبو التقيوم فضل الصدقة قائلاً: (أو ما سمعت أن الرب يربّيها فيراها صاحبها كجبل أحد؟ أفرغب عن مثل هذا الخير أحد؟ واعجبا للقامة كانت قليلة وكثرت وفانية فبقيت ومحفوظة فحفظت أما علمت أن الصدقة إذا صدقت في اخراجها نفسٌ تقيّ تقي مية السوء وتطفئ غضب الرب؟ إن اللقمة إذا أكلت صارت أذى وقبائح في الحشى وإذا تُصدق بها صارت إذا مدائح عند العرش (...). إن مُقيم جسد الفقير بأسباب صلاته شريك له في ثواب صلاته ومن فطر صائماً قد صبر إلى عشاءه من فجره فله مثل أجره (...). ان الصدقة تزيد في العمر ثم إنها والله سريعة الخلف وحافضة بعد الموت للخلف واعلم أن إنفاق كل حبة يُثمر لك الوفاق والمحبة (...). كان حاتم الطائي كافراً وكان يطعم حاضراً ومسافراً فإذا فضلت لقمات القاهنّ على الرمل وقال: انهنّ جارات - يعني النمل -)^(٢).

إن الصدقات تنمو وتثمر وتقي المتصدق مية السوء وترضي الله تعالى ويؤجر عليها وإذا كان حاتم يحسن للنمل فكيف كان احسانه للانسان؟ إن الفقر يولد اغلب المشاكل الاجتماعية ويزرع الأحقاد بين الطبقات لذلك فرضت الزكاة ليكون للفقراء حتى في أموال الأغنياء (والإسلام في تقديره الواقعي للإنسان لم يجد في اختلاف درجات بني الإنسان في أرزاقهم وأموالهم وممتلكاتهم مخالفة لسنن الكون فالإنسان في عرف واقع الحياة ليس له إلا ثمرات سعيه وهو سعي تختلف نتائجه باختلاف القدر والمواهب والكد ومن هنا كان من مسلمات مبادئ العدل في تعاليمه ان يحمي مال المسلم مثلما يحمي عرضه ودمه فمال المسلم في تشريع الإسلام في حمى من أن تمتد إليه بغير حق يد لا تملكه ولكن هذه الحماية في هذا التشريع أيضاً يجب ان لا تمس كرامة المسلم الفقير

(١) أدب الدنيا والدين: الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) تحقيق مصطفى السفا، ٨٢.

(٢) مقامات ابن الجوزي: ١٦٩-١٧٠.

ويجب أن لا تنتهي بالأثرىاء إلى الطغيان واستعباد الناس^(١). ان الاحساس بمعاناة الفقراء ومد يد العون لهم دليل الغيرة والنبيل والتآخي وهو سعي للتطور وتحسين أوضاع المجتمع الاقتصادية والاجتماعية فإذا (صلح حال الطبقة الفقيرة ازدهر المجتمع وتوحدت قلوب فئاته وانتفت عنه القلاقل والفتن والمذاهب الهدامة التي يثيرها الفقر والحاجة)^(٢).

انّ كل ما في الكون من كائنات وظواهر طبيعية دليل على وجود خالق عظيم هو الله تعالى لعنايته وحكمته في الخلق والكون لذلك (بدأ الادباء يشكون في امكانية اصلاح هذا العالم وظهر ان المستقبل مظلم فازدادت موجة الزهد اتساعا وزحف الوعظ والشد الديني إلى ميادين لم يعرفها من قبل واشتدت الحاجة إلى مثل أعلى يقصده الشعراء ويستعينون بمدحه عن مدح الزعماء والحكام)^(٣).

لقد استطاع ابن الجوزي من خلال بطل مقاماته ابي التقيوم التعبير عن تعاليم الإسلام ونقد عيوب المسلمين في الجوانب الاخلاقية والعملية وقد وظف جل مؤلفاته لخدمة الإسلام وفضلا عن ذلك (لم يكن جهاده محصوراً في القلم والتأليف انما كان له شأن عظيم وشهرة كبيرة في الوعظ والخطب والدعوة والارشاد بين الخواص والعوام)^(٤) وما ابو التقيوم الا مرآة تعكس أغراض ابن الجوزي وهذه هي رسالة الأديب المصلح (إن اصحاب هذه المقامات لا يمكن ان يخرجوا عن دائرة الالتزام اذا اردنا ان نحدد أبعاد هذا الالتزام ولا أعالي اذا قلت انهم يكونون من غلاة الملتزمين لأنهم وظفوها توظيفاً كلياً لتصوير اوضاع المجتمع ونقد أصوله والكشف عن المظالم التي يزر بها)^(٥).

(١) حياة الإسلام في قواعده الخمس: محمد بن تاويت الطنجي، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد ٤، ١٩٨٥ م، ٣٥.

(٢) روح الصلاة في الإسلام: عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٦ م، ٤٢.

(٣) الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: مزهر عبد السوداني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠ م،

٢١٣.

(٤) نواسخ القرآن: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق محمد اشرف علي الملباري، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٤ م،

٤٠.

(٥) الاديب والالتزام: د. نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩ م، ١٠٧.

الخاتمة:

ترتكز مقامات ابن الجوزي على المضمون الديني والاجتماعي الهادف وهو كاتب مصلح وظف مقاماته لخدمة الإسلام والمسلمين من خلال بطل مقاماته أبو التقويم الذي اتخذ من فن الوعظ والخطابة وسيلة للتعبير عن خفايا نفسه وعقله بأسلوب مسجوع موظفاً فنون البلاغة ولا سيما السجع ناشداً الهدف التعليمي التوجيهي.

استطاع ابن الجوزي نقد المسلمين ونشر مفاهيم الإسلام وفلسفته فيبين دور السلطان وضرورة اقامة العدل وخدمة الرعية وانتقد عيوب المجتمع الإسلامي كما تضمنت مقامات تعزية الميت ودور الصبر كما ذم العشق الذي لا يثمر سوى الحزن والضياع وحث على الكرم وبيّن دور العالم وفضله في تقدم المجتمع ومن الموضوعات التي تطرق اليها ابن الجوزي حكمة الصوم وآدابه ومعنى الحج وفلسفته وفضل الصدقة.

كما أبدع ابن الجوزي في اساليب البلاغة ولا سيما السجع والجناس والطباق واطهر ثقافته اللغوية والدينية والتأريخية على لسان أبي التقويم بطل مقاماته الذي يمثل الذات الثانية للمؤلف الحقيقي ابن الجوزي يشهد على ذلك اسلوب الوعظ الذي اشتهر به الكاتب في القرن السادس الهجري وفي هذه الفترة انتشر الفساد والجهل وشاعت الخرافات وضعف الالتزام الديني فكثرت أمراض المجتمع وبما أن ابن الجوزي كاتب مصلح وواعظ ديني فقد ظهر الالتزام الديني والاجتماعي في مقاماته إذ أراد للمجتمع الإسلامي الصلاح والسعادة.

المصادر والمراجع

أولاً. الكتب:

١. ابن الجوزي: د. حسن عيسى الحكيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٨م.
٢. أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٣، ١٩٥٥م.
٣. الأديب والالتزام: محمود الجومرد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٠م.
٤. الأديب والالتزام: د. نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.
٥. البداية والنهاية: ابن كثير، مكتبة المعارف، مصر، المجلد الثالث عشر، ط٢، ١٩٧٧م.
٦. تحسين القبيح وتقييح الحسن: أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق شاعر العاشور، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٧. الحب والجمال عند العرب: أحمد تيمور باشا، مطبعة عيسى البابي الحلبي واولاده، القاهرة، دون طبعة، ١٩٧١م.
٨. ذم الهوى: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٦٢م.
٩. روح الدين الإسلامي: عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
١٠. روح الصلاة في الاسلام: عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٦م.
١١. سلوة الأحزان بما روي عن ذوي العرفان: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق سهير محمد المختار، أمانة محمد نصير، الاسكندرية، ١٩٧١م.
١٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، دون طبعة، دون تاريخ.
١٣. الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: مزهر عبد السوداني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
١٤. طوق الحمامة في الألفة والألاف: ابن حزم الأندلسي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٥م.
١٥. كتاب المواقيت في بعض المواقيت في مدح الشيء وذمه: أبو منصور عبد الملك محمد الثعالبي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
١٦. المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٩م، الجزء الثاني.
١٧. مقامات ابن الجوزي: تحقيق د. محمد نغش، دار فوزي للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠م.
١٨. المقامات أصالة وفنا وتراثا: عبد الأمير مهدي الطائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠١م.
١٩. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق فريتنس كرنكوي، مطبعة الجامعة العثمانية، حيدر آباد، ١٣٥٩هـ، الجزء الأول.
٢٠. نصيحة الملوك: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٦م.

٢١. نظرات في الصوم: رابطة علماء العراق فرع الموصل، مطابع الجمهور، الموصل، ١٩٧٤م.

٢٢. نواسخ القرآن: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق محمد أشرف علي الملباري، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٤م.

ثانيا. الدوريات:

١. ابن الجوزي ونظراته في التربية والتعليم: جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرفادين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد العاشر، ١٩٧٩م.

٢. تربية النفوس في الاسلام: د. محمد محمد خليفة، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٨٩، ١٩٧٢م.

٣. حياة الإسلام في قواعده الخمس: محمد بن تاويت الطنجي، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد ٤، ١٩٨٥م.

ثالثا. الرسائل:

١. صورة المجتمع في شعر القرن السادس للهجرة: سعاد جاسم الصميدعي، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٣م.

Islamic society through the shrines of Ibn al-Jawzi

Dr.. Basim Nazem Suleiman

Department of Arabic Language / College of Education / University of Kirkuk

Abstract

Ibn al-Jawzi's shrines are a model of committed literature that portrayed Islam and the reality of Muslims as critical, directed and advisable, as it is a kind of educational literature aimed at the form and content of its body through the tongue of the father of the calendar, the hero of his fiftieth maqams, which were based on ethical, practical, and belief aspects (the maqamat is a contrasting painting that talks about various social eras. Live pictures continued and pictures of worn or sick died and grave in her era.